الليتورجيا الأرثوذكسية: لاهوتها وروحانيتها، الجزء الثالِث

بقلم المتروبوليت سابا (اسبر)

تهتمّ اللّيتورجيا بتقديس الزّمان والحياة، لكي يغدو كلّ فعلٍ في حياة العالم، فعلاً مباركاً ومقدّساً، لكي تشدّ العالم إلى الملكوت، وتحثّه على تحقيقه، لأنّه غاية وجوده.

تفتتح الليتورجيّا الأرثوذكسيّة السّنة، بذكرى رأس السّنة الكنسيّة في الأول من أيلول، لأنه بدء المواسم الزراعية الجديدة، طالبة من الله الكلّيّ الرّحمة، مواسماً خيّرة وأمطاراً وفيرة.

وتصلّي على البيض في عيد الفصح، والعنب في عيد الّتجلّي، وعلى القمح والخمر والزيت، في كلّ مباركة الخمس خبزات خلال خدمة غروب، لعيد كبير، أو قديس شعبيّ، وعلى سعف النّخل في الشّعانين، ومؤخّراً، وانسجاماً طبيعياً مع دور الّليتورجيا الأرثوذكسيّة، في تقديس الكون، وتربية المؤمن وتهذيبه، أدخلت خدمة ليتورجيّة من أجل البيئة، تتكلّم نصوصها الليتورجيّة، عن الموقف الإيمانيّ المسيحيّ من البيئة وموقف المؤمن منها، وتطلب من الله أن يعطينا استعمالاً حسناً، وصالحاً له، ولا تنسى أن تذكّر المجتمعين للصلاة، بأن تدهور البيئة، هو أحد علامات سقوط الإنسان، استفحال الخطيئة فيه، لذلك تدعوه إلى التوبةّ. تقام هذه الخدمة في يوم البيئة الأرثوذكسي، الموافق بدء السنة الطقسية في الأول من أيلول.

من الضّروريّ أن نذكر، أنّ الليتورجيا الأرثوذكسيّة، تستخدم الحواس الخمس عند المؤمن في عبادته، فهي تستخدم الألحان، والصور، والشموع، والمباخر، ولباس خاص الكهنة وآخر لخدّام المذبح وللمائدة المقدّسة وستائر الهيكل، وتتغيّر ألوانها بتبدّل الأعياد والمواسم. كذلك، رسم إشارة الصّليب والسّجود والوقوف .....إلى ما هنالك من أمور، قد تبدو، للناظر من الخارج، مغرِقة في المادّيّة، لكنّنا إلى عدنا إلى العهد القديم ودرسنا طقوس الهيكل الواردة على لسان الله فيه، فإننا نراها في توافق مع الخط العام، خاصة إذا تابعنا وصف الليتورجيا السماوية في سفر الرؤيا. الهدف من هذه الترتيبات: اشتراك المؤمنين بكامل حواسهم في العبادة، ومساعدة الإنسان في الاشتراك والانخراط في العبادة بكل كيانه، بمساعدة حواسه الخمس، أي بكلّيته. وكذلك، تذكيره الدّائم بدعوته إلى استعادة تجلّي الكون والاشتراك في بهائه.

جدير بالذكر هنا، أن نقول: إنّ الفنّ في العبادة الأرثوذكسيّة، لا يُستخدم كما هو في العالم، بل بعد تنقيته وتقديسه، أو بكلمة أخرى بعد روحنته، فهكذا لا نجد في الكنيسة الأرثوذكسيّة لوحة دينيّة، بل أيقونة تصوّر القدّيس، أو الحدث الدّينيّ في حالة الّتألّه. وكذلك، لا تعتمد الموسيقا الكنسية على الآلات الموسيقية، التي هي من صنع الإنسان، بل على الصوت البشري الذي هو من خلق الخالق "التي لك، ممّا لك، نقّدمها لك، في كل وجه، ومن أجل كل شئ."

***

وفي كلامنا على اللّيتورجيا الأرثوذكسيّة علينا ألا ننسى أنها كتابيّة بامتياز. فهي مجبولة تماماً بالكتاب المقدّس، فالمزامير هيكلها الأساسيّ، ولكلّ خدمة مزامير خاصّة، تؤلّف هيكل الخدمة الأساسيّ. ولكلّ عيد مزامير ملحّنة خاصّة به، إلى ذلك تتوزّع نصوص من الإنجيل والرسائل يومياً، على مدار السنة الطقسية، لتغطي الأناجيل الأربعة، وكلّ الرسائل. أما العهد القديم، فنقرأ منه نصوصاً في كل غروب لعيد سيديّ، أو قديس شعبي، لنربط الحدث بالنبوءات الواردة عنه، ونتعلّم أن نقرأه قراءة مسيحية، على ضوء العهد الجديد. كما أن سفري أشعياء والأمثال يُقرآن بكاملهما تقريباً في أيام الصّوم الكبير، بالإضافة إلى نصوص من سفر أيوب وأسفار أخرى، خاصة في الأسبوع العظيم.

بالإضافة إلى أنّ الكثير من النصوص الليتورجيّة مكتوبة بروح كتابيّة، وتُستخدم نصوص كتابيّة في صياغتها. لا ننسينَّ أيضاً أن الإنجيل المقدس يجب أن يظلّ على المائدة المقدسة في هيكل الكنيسة دائماً، ويدور الكاهن حاملاً إياه، وداعياً المؤمنين إلى حكمته، في كلّ قداس الهي.

***

أخيراً وليس آخراً، تعلّم الليتورجيا الأرثوذكسيّة المؤمن أن يحيا، لا لأنه يأكل فقط، بل لأنه محفوظ بنعمة الله، ولا تكتفي بتعليمه هذا الأمر بل تساعده كي يعيشه، بواسطة الصلوات الكثيرة، الخاصة بكلّ المناسبات التي يحياها الإنسان: صلاة تبريك بيته، والصلاة على ولده عند ولادته، وعند دخوله الأول إلى الكنيسة، وعند ذهابه الأول إلى

المدرسة .....وصلاة قبل وبعد الطعام، قبل وبعد السفر، قبل وبعد الدرس، قبل وبعد السفر، تبريك سيارة جديدة، إلخ.

***

قد تبدو الخدم الليتورجية الأرثوذكسية طويلة للمراقب من الخارج، لكن مدتها لا تقاس أرثوذكسياً بعدد الساعات، بقدر ما تقاس بفائدتها الروحية. لعل هذه القصة تلخص بإيجاز النظرة الأرثوذكسية للعبادة وروحانيتها. بعد زيارة أحد الرهبان الغربيين لجبل آثوس، وقضائه فترة بين أدياره، سأل راهباً أرثوذكسياً من الجبل: ماذا تفعلون كل هذا الوقت الطويل في الكنيسة ؟ لماذا هذه الخدم الطويلة؟ ما الهدف منها؟ أليس من الأفضل أن تقوموا بعمل ما، بدل هذه الملازمة الطويلة للكنيسة؟ فأجابه ذاك قائلاً: وماذا يفعل الجنين في بطن أمه طوال الأشهر التسعة التي يقضيها فيه؟ أترانا نقدر أن ننمو ونتشكل ونتكوّن، لنصير كائنات حيّة يسكن فيها الروح القدس، من دون هذه الملازمة الطّويلة؟

يبقى أمر عملي يجدر ذكره. ثمة نظام تنظيمي معقد، مبني على الخبرة، أنماه التقليد الشريف وطوره مع الزمن، بغية أداء العبادة بالطريقة الفضلى والأكثر فائدة للمؤمنين، من حيث إقامة قارئين ومرتلين، وتوزيع الترتيل بين بطيء وسريع، وما إلى ذلك مما يتطلب بحثاً خاصاً. إذا لم يكن هذا الترتيب متوفراً ببهاء هنا وهناك في كنائسنا، فالسؤال عن السبب موجه إلى كلّ منّا!